FTDES
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

***

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي **كراسات المنتدى**

***

حقوق التأليف محفوظة للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

الطباعة : المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية- سبتمبر 2020
ISSN : 2724-6833

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرُّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

الإدارة والتحرير:
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 47 شارع فرحات حشاد، 1001، تونس

المديـر المسؤول:
علاء الطـــالبي

أعضاء لجنة التحرير:
حياة عمامو، صلاح الدين بن فرج، رياض بن خليفة، نزار بن صالح،
ماهر حنين، سفيان جاب الله، مالك كفيف، محمد سليم بن يوسف

التدقيق اللغوي:
وليد فيّـــــالة

صورة الغـــلاف:
حسام سعـــاف

طبـــــــاعة:
الطباعة المتضامنة

المحتوى

سفيان جاب الله

تقديم عام للكُرّاس 07

المحور الأولّ: في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة..... 22

منـــــال دربالي

لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس. 23

حسـام سعّــاف

هوموستازية المُجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي: قراءة أنثروبولوجية. 36

آية بوصحيــح

تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء: (مقاربة قانونية). 49

يوسف موسى

الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضررا؟.. 60

المحور الثاني: بورتريه الفئات السوسيو-مهنيّة الأكثر تضرُّرًا من الحجر الصحّي..... 76

رضـــا كــارم

النّساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء، والهيمنة المزدوجة. 77

هيثم مدوري

عمّال البناء: الواقع، الحَجْر والإجراءات. قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة. 94

أمل الهـــازل

عاملات النظافة في المُستشفيات زمن الجائحة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة..... 111

منتصر النغموشي

بورتريهات عاملي المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية..... 126

فهمـــي البلطـي

طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطبّاء الموجة الأولى للوباء؟. 145

محمد سليم بن يوسف

أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي: مجالات الفعل الجماعي والتسييس.. 163

المحور الثالث: في رصد تحولّ/تغيّر كميّ ونوعي لظواهر اجتماعيّة إبان الحجر الصحّي 180

خـــالد طبـــابي

ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس: محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء.... 181

حـــازم شيخاوي

في فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا.. 202

أحمد الســـاسي

كيف عاشت الأحياء الشعبيّة جائحة الكوفيد 19؟ الكبّاريّة نموذجا..... 214

المحور الثالث:

في رصد تحولّ/تغيّر كميّ ونوعي لظواهر إجتماعيّة إبان الحجر الصحّي

ديناميكيـــات الهجرة غير النظـــامية في تونس محـــــاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوبـــاء

خالد طبابي

مُلخّص :

أمام حالة الهشاشة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الصعبة التي مرّت ولا تزال تمرّ بها البلاد التونسية في سياق تعسّفت فيه السياسات الهجرية على الدول المتخلّفة اقتصاديا معتبرة الهجرة امتيازا وليس حقا، اختار حينها المهمشّون الانخراط بالمشاريع الهجرية غير النظامية مشتركين في نفس المأساة حالمين بنفس الحلم. ولكن المفارقة اللافتة للانتباه أنّ أوروبا وخاصّة إيطاليا عاشت على واقع حياة مأساوية جرّاء الوباء حيث فقدت العديد من الأرواح البشرية و تكبدت خسائر الاقتصادية جسيمة، ولكن على الرغم من المعطى الوبائي العالمي لم تتوقف قوارب الموت المتجهة من تونس نحو إيطاليا في زمن كانت فيه البلاد التونسية أقلّ ضررا من أوروبا من حيث عدد الإصابات وعدد الوفايات و سرعة انتقال العدوى. بناءا على ما تقدم، تحاول هذه الورقة التحليلية فهم المنطق الهجري "للحارقين" والبحث عن عوامل الجذب والطرد زمن الجائحة وأيّ مشهد هجري بعد الوباء.

Abstract :

Given the difficult situation of social, economic and political fragility that Tunisia has gone through and is still going through in a context where migration policies remain arbitrary for underdeveloped countries, considering immigration as a privilege and not as a right. But, the striking paradox is that Europe and especially Italy have lived through a tragic situation following the pandemic, where many human lives have been lost and enormous economic losses have been incurred. But, despite global epidemiological data, the death boats leaving from Tunisia to Italy did not stop at a time when the Tunisian country was less damaged compared to European countries in terms of the number of cases of contamination, of deaths and the rate of contagion. On the basis of the above, this analytical article attempts to understand the migratory logic of the “Harragas” and to research the factors of attraction and expulsion during and after the pandemic.

"لم تعد ظاهرة الهجرة غير النظامية مشروعا فرديا للخلاص من واقع الفقر والبطالة يؤثثه الشباب بعنفوانه وطاقاته الكامنة في حبّ المغامرة والإقدام على المجهول، بل أضحت اليوم مشروعا جماعيًا مجتمعيًا تستنفر من أجل نجاحه صلة الرحم وعلاقات الدم والقرابة، ورحلة موت مؤكدة تزكيها العائلات وتسعى إلى إنجاحها الأسر".

عائشة التايب[1]

تقديم عام

أكدّت العديد من الدراسات الأكاديمية وتقارير المنظمات غير الحكومية والجمعيات المعنيّة بقضايا الهجرة على ضرورة مراجعة الخيارات التنموية والسياسات الهجرية للاتحاد الأوروبي تقريبا منذ تسعينيات القرن الماضي حينما تمّ تفعيل فيزا شنغان وبداية التراجع الاقتصادي والاجتماعي في سياقات الزبونية والاستبداد التي انتشرت في المجتمع التونسي وأغلب المجتمعات العربية والمغاربية المتخلّفة اقتصاديا. ولكن على الرغم من تحرُر صوت الحرية إلى حدّ ما بعد ثورة 17 ديسمبر 2010 _14 جانفي 2011 ودخول تونس إلى بوابة سياسية جديدة، ظلّت الهجرة غير النظامية من أبرز الملفات المطروحة على جدول أعمال الدول وجلّ الفاعلين الحقوقيين المناصرين لقضايا الهجرة وللفئات الهشّة، بل إنّ هذه الظاهرة قد زادت عمقا من حيث التدابير والإجراءات اللاإنسانية للسياسات الهجرية والفواجع بالبحر الأبيض المتوسط في سياق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي مازالت مرتبكة وهشّة ولم تلبّ حاجيات فئات اجتماعية عديدة. كما كنّا قد نبّهنا في أعمال سابقة ومنها التقرير السنوي للهجرة سنة 2019 وهي من إصدارات المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية وفي أعمال علمية أخرى على أنّه إذا ما ظلّت نفس الخيارات التنموية والسياسية سنعيش على واقع أحداث تراجيدية خلال مطلع العقد الرابع منذ انطلاق الهجرة السرية بتونس عبر المتوسط. ومن المؤسف أنّ هذه الفرضية قد أثبتت صحتها ونستنتج هذا من خلال غرق قارب هشّ على متنه حارقون تونسيون أسفر عن غرق ومقتل مهاجر واحد على الأقل وفقدان أثر ستة آخرين يوم 23 ماي 2020 على بعد ميل بحري واحد قبالة سواحل مدينة صفاقس. ولكن المفارقة اللافتة للانتباه أنّ غرق هذا القارب ووصول العديد من المهاجرين الآخرين إلى الأراضي الإيطالية بطريقة غير نظامية تأتي في سياق تعيش فيه إيطاليا على وجه الخصوص وأغلب دول العالم على وجه العوم على واقع حياة يومية مأساوية متمثّلة في فقدان العديد من الأرواح البشرية جرّاء فيروس صغير الحجم، كما أربك هذا الأخير الاقتصاديات العالمية العظمى.

[1] سياسات التنمية في تونس وتأثيرها في فرص العمل "، " " النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة في الدول العربية، سياسات التنمية وفرص العمل :دراسات قطرية"، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ص249 _129

وتعتبر الدولة التونسية من بين الدول التي نجحت صحيّا إلى حدّ ما في مجابهة الوباء إذا ما قورنت بدول أخرى على الرغم من محدودية الصحّة العمومية، ولكنّها لم تنجح في مسار العدالة الاجتماعية قبل وأثناء الوباء. لذلك على الرغم من وجود خسائر بشرية وانتشار العدوى بتونس إلاّ أنّها أقل حدّة من عديد البقاع الأوربية التي يصفها المهمشون بالجنّة الموعودة، وبالتالي فإنّ حركة الهجرة غير النظامية نحو إيطاليا هي ديناميكية محيّرة في هذا الوقت.

إذن سنحاول في هذه الورقة تقديم قراءة تحليلية للمشهد الهجري زمن الوباء وبالتالي حول المنطق الهجري للحارقين في وقت تعيش فيه إيطاليا وأوروبا نكسة اقتصادية وصحيّة حادّة وسنحاول البحث عن أبرز وأهمّ عوامل الطرد والجذب في هذا الظرف الصحّي والاقتصادي العالمي الاستثنائي وكيف يبنى القرار الهجري استنادا إلى الإشكالية التالية:

إلى أيّ مدى يمكن اعتبار أنّ الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التّي غذّت كورونا من حدّتها وعمقها في سياق صدّرت فيه الطبقة السياسية رسائل سلبية ولم تخلُ من صعود الحركات الاحتجاجية وتخلّت فيها منظمة الأعراف عن العمّال وانتصرت للأرباب عوامل حاسمة تدفع بالفئات الهشّة للانخراط في المشاريع الهجرية غير النظامية؟

ألا يمكن أن يكون لبعض الدوائر والحلقات المجتمعية وشبكات التهجير والتهريب الأثر الحاسم في صنع القرار الهجري؟ وأي مشهد هجري بعد الوباء؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، سيكون مفيدا أن نعلم القارئ بأنّه قد صعب علينا البحث والتفحص الميداني خلال هذه الفترات، ذلك أننا لم نتمكن من إجراء أي مقابلة سوسيولوجية تفهميّة مع المهاجرين الحاليين. وللحفاظ على الروح الموضوعية أثناء التحليل اعتمدنا على قراءة سوسيو- اقتصادية وأخرى تاريخية، لذلك اخترنا أن نبدأ التحليل بقراءة تاريخية وجيزة عن الهجرة غير النظامية عبر المتوسط في تونس وذلك لفهم تحولات المشهد الهجري وخاصّة زمن الوباء، كما حللنا عناصر أخرى وفقا للقراءة السوسيو-تاريخية، فعلم التاريخ يسمح لنا بالمقارنات التي تعتبر مسائل جوهرية وحياتية بالنسبة لعلم الاجتماع[2]. كما حاولنا التحليل وفقا للمعطيات الإحصائية للمهاجرين التونسيين في سياق كوفيد 19، إضافة إلى أننا اخترنا بعض الشعارات التي رفعها المهاجرون بطريقة سريّة وهم في غمار المتوسط زمن الجائحة وعبارات أخرى قدمها مهاجر تونسيّ في مركز الإيواء بمنطقة مليلة الإسبانية في إحدى الندوات الافتراضية وحاولنا فهمهما وتحليلها ربطا بالواقع الاجتماعي، كما اعتمدنا أثناء القراءة والفهم على بعض الأبحاث والكتابات السابقة ولم نغفل

[2] المولدي قسّومي، "المنظّمة النقابية لأرباب العمل التّونسيّين الأطوار والأدوار"، تقديم: الهادي التّيمومي، دار نقوش عربية، تونس 2018، ص 8.

الدور الهام الذي تلعبه الحلقات والدوائر المجتمعية في صنع القرار. وفي ختام التقديم نعلم القارئ أنّ هذه القراءة تقف عند موفى شهر ماي من سنة 2020.

قراءة مختصرة للمشهد الهجري في فترة 2010_2019

سوسيولوجيا، لا يمكن وضع كلّ الهجرات بطريقة سريّة ضمن سلّة واحدة، فالانتعاش النفطي للاقتصاد الليبي خلال سبعينيات القرن الماضي نتج عنه حركة هجرة بطريقة غير نظامية، وكان للتونسيين نصيب من هذه الهجرات. كما أنّ ثورة 14 جانفي ليس لها صلة مباشرة بحركة الهجرة السريّة، ولكن يمكن القول أنّ التاريخ الفعلي للهجرة عبر المتوسط انطلق منذ تسعينيات القرن الماضي حينما تم تفعيل فيزا شنغان بين 1986_1990 من ناحية وبداية انتشار ظاهرة البطالة واستشراء الفساد من ناحية أخرى.

"نشأت شبكات التهجير في تونس خلال مطلع التسعينات في ثلاث مناطق بالأساس وهي: مناطق الشمال الشرقي أي تونس وبنزرت والوطن القبلي، ومناطق الساحل وولاية صفاقس، وأخيرا مناطق أقصى الجنوب وهي ولايتا قابس ومدنين وكانت تسمى بالبؤر الطاردة"[3]، **foyer migratoire**. لتتطور هذه الشبكات عبر ثلاث مراحل في ثلاثة عقود، فقد كان "الجيل الأول يسمى جيل **الحارقين الأوائل** وتقوم هذه المجموعة على شبكات الرفاق والصداقة وأبناء الحي الواحد، ويُمولون مشروعهم الهجري عن طريق النشل أو ابتزاز العائلة كتهديدها بالانتحار، ويشترون قارب الرحلة من السوق السوداء بمنزل كامل من ولاية المنستير، أما الجيل الثاني الذي ولد خلال مطلع الألفية الثانية فقد طوّر شبكات الهجرة وأصبحنا نتحدث عن **الشبكات المتوسطة**، وفيها المحترفون، حيث نجد فيها نوعا من توزيع الأدوار، كاليد الخفية، والميكانيكي، وسائق القارب أو العَبّارة والنقل أي المتاجرة بالبشر، وفيها أيضا توزيع العوائد والمبالغ الباهظة. أما مع الجيل الثالث وخاصّة بعد ثورة 14 جانفي 2011 فقد توسعت وتطورت هذه الشبكات إلى **الشبكات العابرة للقارات**، وقد ظهرت خاصّة في الجنوب، ونجد فيها جنسيات مختلفة حيث تسجّل **وزارة الداخلية التونسية بين 70 و80 جنسية تدخل إلى تونس كل سنة وتعبر الحدود التونسية**، ونجد فيها أيضا الاحتراف واختلاط الجنسيات في الأدوار كأن يكون قائد السفينة مثلا من مصر، ولكن تنتشر فيها ممارسات العبوديّة فهي شكل من أشكال العصابات".[4] وبالتالي في سياق الأزمة الاقتصادية والسياسية والأمنية توسعت شبكات التهجير من شبكات محليّة ضيّقة إلى شبكات عابرة للقارات.

[3]Mabrouk (Mehdi) « Voiles et sel, culture, foyers et organisations de la migration clandestine en Tunisie » Les Editions Sahar 2ème édition 2012 » P 125_126.

[4] مهدي مبروك،" مائدة مستديرة بعنوان: الهجرة السريّة-أزمة اقتصادية وحلول مقترحة"، مركز دراسة الإسلام والديمقراطية، 28 جوان 2018 بنزل أفريكا، تونس.

كما طرأ على المشهد الهجري العديد من التحولات، حيث كانت ملامح المهاجرين خلال العقد الأوّل محصورة جدا في تلك الفئات المسحوقة والشعبية وغالبيتهم من جنس الذكور والمستوى التعليمي المحدود، وكانت الخارطة منحصرة في الفئات القاطنة قرب الضفاف البحرية، ذلك أنّهم متمكنون من تقاليد البحر، لتتوسع تدريجيا خلال العقد الثاني إلى مناطق أخرى عديدة بخلاف المناطق البحرية ومع الحفاظ على نفس الملامح تقريبا. ولكن يمكن القول منذ انتفاضة الحوض المنجمي سنة 2008 أن التونسيين سجّلوا أعلى موجة هجرة سريّة، إذ كان عددهم في جزيرة لمبادوزا 6.762 مهاجرا من بينهم 52 امرأة و184 قاصرا"[5]. ومنذ ذلك التاريخ وخاصّة بعد سنة 2011 تمّت جندرة الهجرة وتوسعيها على طبقات عديدة بصفات متفاوتة، كما أصبح القاصرون منخرطين في هذا المشروع، علاوة على الهجرات الجماعية والعائلية، كما أصبحت العائلة داعمة لهذه الحركة بعد أن كانت رافضة خلال العقدين الأولين، أيضا انخرط أصحاب الشهائد العليا في مشروع قوارب الموت، كما تنوعّت طرق العبور في سياق السياسات الهجرية التي صارت ترحّل التونسيين قسريّا من إيطاليا ولم يعد المتوسط هو النافذة الوحيدة. كذلك على الرغم من وجود العديد من البراديغمات التفسيرية، تظلّ العوامل الاقتصادية والاجتماعية وتعزز مشاعر الخيبة واليأس لدى الشباب في طليعة عوامل الطرد وهذا لا يعني أننا ننفي دور الحلقات المجتمعية من الأسرة والحيّ وشبكات الصداقة والزمالة والتطور التكنولوجي في صنع القرار، فقد كانت حاضرة ولعبت دورها وبشدّة، لكن بالعودة للماضي القريب وبصفة عامّة ومختصرة يمكن القول أنّه" إذا كانت معدّلات هجرة التونسيين قد استقرّت بين سنوات 2012 و2016، حيث ظلّت تتراوح بين 1000 و2000 شخصا سنويا، ويعود هذا التراجع لأسباب أمنية ومراقبة الحدود وليست تنموية، فإنّ أرقام المهاجرين عادت لتسجل ارتفاعا ملحوظا خلال سنة 2017، وهي سنة حراك **الكامور**، فقد هاجر حوالي 6151 شخصا وتمّ القبض على حوالي 3178 شخصا، وكذلك في السنة التي تلتها (2018) فقد وصل إلى الحدود الإيطالية حوالي 6006 تونسيا وتونسية وتم إلقاء القبض على 7146 شخصا، لنسجّل وصول حوالي 3545 تونسيا إلى إيطاليا في سنة 2019، وقد تزامنت هذه الأرقام مع معطى جديد في الساحة التونسية، إذ شهدت الفترة اشتداد الأزمة الاقتصادية التي تعرفها البلاد فنسبة التضخم ارتفعت لتبلغ 7.1% واستقرت نسبة البطالة عند مستوى 15.4% بين سنتي 2017 و2018، مع تتالي الخطط الحكومية لتجميد الانتدابات في القطاع العام وتراجع الاستثمار الخاص إضافة إلى تقهقر الدينار التونسي ليبلغ ثلث قيمة اليورو وارتفاع المواد الاستهلاكية."[6] ومن هنا يمكن القول أنّ حدّة الأزمة الاقتصادية والسياسية والأمنية في سياق اصطدمت فيه حركات الاحتجاج باليأس والإحباط وعملت

[5] Boubakri Hassan, Migrations Internationales et Révolution en Tunisie, « Migration Policy Centre, Rapport de recherche, N : 1, 2013,PP 1-37 », P 3

[6] أسامة عثمان " الشباب التونسي والهجرة غير النظامية: بين ثنائية الجوع في الداخل والأبواب الأوربية الموصدة"، المفكرة القانونية، الموقع: « legal-agenda.com » Le 09/12/2019 12 :11H

فيها السياسات الهجرية على بناء جدران العزل دون التفاوض كانت من أبرز عوامل الطرد خلال العقد الثالث.

الهجرة غير النظامية في سياق الوباء

كورونا: حدّة الأزمة الاقتصادية وتعميق العوامل الطاردة

أعلن رئيس الجمهورية يوم 20 مارس 2020 حجرا صحيّا شاملا وحظرا للتنقل بين المدن وذلك بعد أن بدأ الوباء بالانتشار منذ الأسبوع الأوّل من نفس الشهر، وهذا القرار لا يتطابق مع فئات اجتماعية عديدة خاصّة أولئك الذين يكسبون قوتهم عن طريق العمل اليومي، فالعمل عن بعد يختزل في قطاعات محدودة، ليعلن رئيس الحكومة يوم 21 مارس عن جملة من الإجراءات الاجتماعية وأهمّها "أن لا يظل أيّ تونسيّ في دائرة الاحتياج، وأن لا يخسر أحد عمله، إضافة إلى عدم السماح بغلق أي مؤسسة اقتصادية، بل عبّرت الحكومة عن استعدادها للوقوف مع أي مؤسسة بغاية استعادة انتعاشها بعد مرور الجائحة، وتقدر تكلفة هذه التدابير بـ300 مليون دينار (96 مليون يورو) بالنسبة للعاملين الذين تمّت إحالتهم على البطالة التقنية، و150 مليون دينار (48 مليون يورو) تمّ تخصيصها للمساعدات الاجتماعية للفئات الهشّة وذات الدخل المحدود، كما تمّ تأجيل سداد القروض البنكية لكل من لا يتجاوز دخله ألف دينار (319 يورو)، وتمّ التوسع في هذه الإجراءات من خلال الزيادة في الميزانيات المخصصة، ليعلن رئيس الحكومة يوم 19 أفريل أنّ هناك مساعدات اجتماعية أخرى سينتفع بها أصحاب الدخل المحدود."[7] ولكن هذه التدابير كانت غير عادلة، فالمساعدات المادية لم تكن كافية حيث كان مبلغ المساعدة 200د للعائلة الواحدة وكانت أيضا توزع عن طريق الهياكل القديمة بعد تقديم المطالب للعُمد. علاوة على ذلك فإنّ العديد من الفئات لم تشملهم هذه المساعدات، مثل الذين يشتغلون بطريقة وبقطاعات غير رسمية أو ما يمكن أن نطلق عليهم "اللامرئيون" الذين يمثلون 54% من الناتج المحلي الإجمالي PIB[8]، كما يغطي هذا النشاط أيضا جزءًا هاما من الحاجيات الاجتماعية للبشر خاصّة في مناطق داخلية عديدة، فقد رجح بعض الباحثين والفاعلين في حقل الاقتصاد أنّها قد تصل إلى حوالي 90% في بعض المحليّات بالمناطق الداخلية.[9] ومن أبرزها ولاية تطاوين التي تسجّل نسبا عالية في البطالة، فإذا كانت نسبة أصحاب الشهائد العليا المعطلين عن العمل قد تجاوزت 46% في معتمدية الرديف من ولاية قفصة، فهي ثاني أعلى نسبة على المستوى الوطني بعد ولاية تطاوين وفقا لإحصائيات سنة 2014 [10] ، كما يأخذ هذا

[7] Mohamed Slim Ben Youssef, « Tunisie, Qui pais le prix du coronavirus ? Le 21 Avril 2020 » site : «orientxxi.info »

[8] Frida Dahmani, « Economie informelle en Tunisie : la république de la débrouille. Le 20 Mars 2018 » site : « orientxxi.info ».

[9] Layla Riahi, « Covid-19 : Revoir le modèle économique tunisien. Le 7 Avril 2020 » Site : « Nawaat.org »

[10] حسين الرحيلي، " الماء والعدالة الاجتماعية بالحوض المنجمي"، " المشروع الإقليمي: من أجل عدالة اجتماعية بمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. مؤسسة فريدريش إيبرت. 2018، ص 72.

الرقم (90%) بعين الاعتبار حركة التجارة عبر الحدود التونسية الليبية والأراضي الفلاحية غير المهيكلة قانونيا ولا يقتصر على الشغّالين بطريقة غير رسمية في مجالات أخرى فقط. كما أنّ هذه الظاهرة ليست مقتصرة على تونس فقط، "ففي المغرب مثلا نسجل حوالي مليوني أجير بطريقة رسمية، وهي نسبة ضعيفة جدا إذا ما قورنت ب 12 مليون من السكان النشطين، فظاهرة العمل خارج إطار الأجر المنظم أكثر اتساعا في بلدان الجنوب وغالبيتها لا تتمتع بأي حيطة اجتماعية، وهذا النشاط يشكل مناخا معاديا للشباب الباحثين عن فرص عمل ومن هنا لا خيار للشباب سوى "تدبر أمره والخلاص الفردي" بعيدا عن الهياكل والمؤسسات العمومية التي لا تشكّل مشغلا كبيرا لهم، وبعيدا أيضا عن الشركات التي لا تمكنهم من فرص عمل في سياق لم تأخذ فيه الأحزاب السياسية والنقابات مسألة الشباب بعين الاعتبار، **لذلك فإنّ حركة الهجرة غالبا ما تكون دون وثائق**."[11] . وبالتالي فإنّ هذه الفئات التي تشتغل دون إعلام وزارة المالية أو الضمان الاجتماعي أو السلطات بشكل عام كانت أشد تضرّرا من القرارات الهشّة التي أصدرتها الحكومة. كما أنّ قطاع السياحة شهد تضررا كبيرا، "حيث رجحت وزارة السياحة تأثر 350 أو 400 ألف عامل وموظف في هذا القطاع بصفة مباشرة أو غير مباشرة وهم يتوزعون بين النزل ووكالات الأ

سفار والمرشدين السياحيين والمطاعم ووكالات السيارات السياحية... لتظهر رسالة وجهتها الحكومة إلى صندوق النقد الدولي أواخر شهر أفريل بأنّ قطاع السياحة سيكون أكثر القطاعات تضررا، فخسائره قد تصل إلى أربعة مليارات دينار (1،4 مليار دولار). كما صرّح أحد مسؤولي وزارة السياحة لـ"الصباح نيوز" أنّ تأثير الفيروس يمكن أن يتسّع أكثر ليشمل أكثر من مليون تونسي خلال الموسم السياحي 2020 (جوان، جويلية، أوت، سبتمبر) وهي الفترة التي تعرف فيها المدن والأقطاب السياحية في تونس نشاطا وحركة كبيرتين وتكون لدى شريحة هامّة كالبائعة المتجولين وأصحاب الجِمال والأحصنة... مورد رزق ينتظرونه لسنة كاملة.[12]" وفي هذا السياق، أفادت "منظمة العمل الدولية أنّه في حالة تواصل هذه الأزمة سنفقد حوالي 25 مليون فرصة عمل حول العالم، منها 1،7 مليون في الوطن العربي، ليضيف المدير العام للمنظمة قائلا: "إنّ هذه ليست مجرد أزمة صحيّة فحسب، بل أيضا أزمة سوق عمل وأزمة اقتصادية كبرى لها أثر هائل على البشر."[13] إذن لم تكن كورونا مجرد أزمة صحيّة فقط، بل إنها تسببت في أزمة اقتصادية واجتماعية حادّة، وإذا كان هذان الأخيران من أبرز عوامل الطرد فإنّها اتسعت في سياق الوباء لتشمل فئات وطبقات أخرى وبالتالي توسع خارطة المهاجرين وتصدّر العوامل الاقتصادية والاجتماعية لعوامل الدفع.

[11] Khadija Mohsen-Finan, Entretien avec Jacques Ould Aoudia, « Jeunes du monde Arabe. Une rupture majeure dans l'histoire des sociétés, Le 12 Mai 2019 ». Site : « orienxxi.info »

[12] ريم سودي، " قطاع السياحة الأكثر تأثرا بالأزمة الاقتصادية لفيروس كورونا... الأربعاء 6 ماي 2020" عبر موقع: assabah.com.tn

[13] فوزي الشيباني، "إشكالية خلاص الأجور إبان أزمة كورونا: عمال القطاع الخاص بتونس نموذجا" « inhiyez.com » 10 ماي 2020

منظمة الأعراف في خدمة الأرباب قبل العمال وتوسيع للخزّان الهجري: مسار القديم المتجدد

إنّ عنصرا أو مقالا وحيدا غير كاف لتحليل أطورا وأدوار منظمة الأعراف من المرحلة النّطفيّة أي ما قبل الجنينية إلى اليوم،[14] ولكن يمكن القول أنّه منذ سبعينيات القرن الماضي إبّان انهيار تجربة التعاضد، "بدأ الإعداد لسن تشريعات اقتصادية تدفع الاستثمار الخاص وتعطي أولويات وأفضليات للبورجوازية من أجل تدعيم الصناعات التصديرية، وقد صدر القانون عدد 37 المؤرخ في 27 أفريل 1972 لهذا الغرض. لعبت مؤسسات الدولة دورا مهما في هذا البرنامج، لذلك فإنّ حكومة الهادي نويرة انتصرت لمبادئ اقتصاد السوق وجعلت الأعراف شريكا اقتصاديا فعليا للدّولة، وقد تعززت مكانتها بظهور الاتفاقية الإطارية منذ 19 مارس 1973 والتي رسمت الملامح الأولى للتعاقد الاجتماعي الذي أسس الشراكة بين الدولة والأطراف الاجتماعية (اتحاد الشغل ونقابة الأعراف). وهذا ما يعني أنّ بداية السبعينيات أعادت منظمة الأعراف إلى وضعها الطبيعي ووفّرت لها الأسس التشريعية والسياسية للمراهنة على أهم محاور الفعل الاجتماعي خاصّة بعد الدور الذي أوكل إلى تونس في ظلّ التقسيم العالمي للعمل في صورته الخاضعة إلى هندسة البنك الدولي.[15]" ومن هنا انفتحت الدولة على المبادرات الفردية وبالتالي تغيّرت منهجية الدولة من العمل وفقا لأفكار شومبيتر Schumpétérienne إلى العمل وفق طريقة وأفكار سميث Smithienne[16]"، والتي أعطت الدولة من خلالها الشرعية للعديد من إطارات الدولة ليصبحوا مقاولين، وتواصل هذا المنهج حتى بعد 1987 مع توغل لظاهرة الفساد وظهور فاعل جديد وهو الشباب المعطل. ولو أننا تجاوزنا محطات عديدة قبل السبعينيات، لكن يمكن القول أنّه منذ ذلك التاريخ (السبعينيات) وخاصّة في سياق الأزمة الاقتصادية ومسار الاستبداد صارت منظمة الأعراف في خدمة السلطة ضدّ المجتمع، ونذكر مثلا أنه، "جاء في التقرير العام للمؤتمر الرابع عشر للاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية أيام 21 و22 نوفمبر 2006 ما يلي: إنّ الفترة بين سنوات 2001_2006 هي فترة ثرية بالأحداث الكبرى وبالأنشطة النقابية النوعية، فعلى المستوى السياسي عاشت تونس انتخابات رئاسية وتشريعية عام 2004 أكّدت التفاف الشعب التونسي بكلّ مكوناته وفئاته حول سيادة الرئيس زين العابدين بن علي وتبنيه لمشروعه الحضاري الرائد، كما عرفت تأسيس غرفة نيابة ثانية (مجلس المستشارين) وتنظيم استفتاء شعبي هو الأول من نوعه في تاريخ البلاد حول إصلاح القانون الدستوري في ماي 2002 واحتضنت بامتياز وتألق القمة الأولى للحوار 5 زائد 5، كما احتضنت تونس القمة العالمية لمجتمع المعلومات (التي أثارت حركات رفض واحتجاج) في نوفمبر 2005، كما عملت

[14] لمعرفة الأطوار والأدوار لمنظمة الأعراف التونسية منذ التأسيس وجلّ التحولات، يمكن للقارئ العودة إلى كتاب الباحث الاجتماعي التونسي، المولدي قسّومي: " المنظمة النقابية لأرباب العمل التونسيين الأطوار والأدوار."

[15] المولدي قسّومي، "المنظّمة النقابية... "سبق ذكره، ص 125.

[16] Boukraa Ridha, Acteurs sociaux et changement social en Tunisie (1956- 1986), « Les changements sociaux en Tunisie 1950- 2000, Sous la direction de : Laroussi Amri, Editions L'Harmattan, Paris 2007, P 183_ 190 ». P 188.

المنظمة على تلميع صورة نظام بن علي الذي اعتبرت أنّه قائد مسيرة بناء ونماء تمثل رهانات دفع الاستثمار والتشغيل وتحقيق التنمية الجهوية [...]، في زمن عرفت فيه البلاد الانفجار الاجتماعي الذي كانت تعيشه منذ سنة 2008، وعرف ذروته أواخر 2010."[17] وبالتالي فقدت هذه المنظمة كلّ الملامح النقابية ولم تعد تتغذى بالمعجم النقابي ذي المرجعية الاجتماعية والاقتصادية. ليتواصل هذا المسار وهو مسار مصلحة الأرباب قبل العمّال بأشكال جديدة بعد ثورة 14 جانفي 2011، وظلّ تحقيق القيمة المضافة لأرباب العمل على حساب العمال من أبرز أهداف أصحاب أغلب المؤسسات والشركات الخاصة، وبالتالي فلا غرابة اليوم في سياق الوباء من تصريحات ومواقف المنظمة النقابية لأرباب العمل، فسيرورتها قديمة متجددة، ولو تغيّر الشكل فإنّ المضمون ظلّ نفسه. فعموما لا يمكن إغفال دور بعض أصحاب المؤسسات ودورهم المجتمعي زمن الوباء، ولكن ذلك لم يكن ضمن انتظارات التونسيين وخاصّة العمّال بالقطاعات الخاصّة، وبالتالي فإنّ رأس المال الخاص زاد من حدّة الأزمة والفوارق الاجتماعية، إذ صرّح رئيس الحكومة يوم 21 مارس 2020، بتصريح مفاده اتخاذ التدابير اللازمة تجاه شركات وطنية كبرى لم تتبرع خلال الأزمة، ليكون رد أصحاب الشركات سريعا، والذين عبروا عن موقفهم على لسان رئيس منظمة الأعراف على إثر خروجه في لقاء تلفزيّ يوم 25 مارس مصدرا موقفا مضمونه أنّ العديد من الشركات الخاصة غير قادرة على دفع الأجور والضرائب ولا يمكنها تقديم المساعدات الاجتماعية.[18] ومن هنا نستنتج أنّ أرباب العمل تعنيهم فقط القيمة المضافة قبل العمالة وقبل البلاد، ذلك أنّ البورجوازية التونسية عكس الأوروبية، فهذه الأخيرة لا مزية للدولة عليها وخاصة الألمانية، فهي التي بنت أوروبا منذ صحوة البروتستانت والعودة إلى المسيحية الأولى مع مارتن لوثر منذ القرن السادس عشر، أمّا في تونس قد نمت البرجوازية وتطورت في علاقة تبعية بنيوية مع السلطة السياسية والسوق الرأسمالية، وهذا ما يفيد أنّ التواطؤ الحكومي كان بصفة مباشرة أو غير مباشرة من خلال مراسيم قانونية، وأصدر وزير الدولة لدى رئيس الحكومة المكلف بالوظيفة العمومية والحوكمة ومكافحة الفساد بلاغا بتاريخ 22 مارس أعلن فيه: "إنّ الأعوان العموميين خلال فترة الحجر الصحّي هم في حالة مباشرة"، ومن هنا نستنتج أنّ الحكومة خرقت مبدأ دستوريا وهو المساواة أمام القانون، إذ ينص الفصل 21 من الدستور: "المواطنون والمواطنات متساوون في الحقوق والواجبات، وهم سواء أمام القانون من غير تمييز" و"تضمن الدولة للمواطنين والمواطنات الحقوق والحريات الفردية والعامّة وتهيّئ لهم أسباب العيش الكريم.[19]" فعلى أيّ قاعدة يتم التمييز بين عمال القطاع العام والخاص؟. كما أصدرت منظمة الأعراف بيانين متتالين خلال 22 و28 مارس عبّرت فيهما عن دعمها لمسار الحكومة بشأن الفئات الهشّة والمؤسسات الاقتصادية والمتضررة وحرصها على سداد أجور عمّال القطاع الخاص، ولكن

[17] المولدي قسّومي، " المنظمة النقابية..." سبق ذكره، ص 135، 136.

[18] Mohamed Slim Ben Youssef, op.cit.

[19] فوزي الشيباني، سبق ذكره.

تراجعت المنظمة يوم 15 أفريل عن اتفاق أبرمته مع اتحاد الشغل والذي يضمن خلاص أجور شهر أفريل لعمال القطاع الخاص،[20] لتعلن منظمة الأعراف أنّها قادرة فقط على جعل فترة البطالة الفنية التي فرضها الحجر الصحي عطلة مدفوعة الأجر. كما سجّلنا تحركات احتجاجية لعديد العاملين بالنزل السياحية الذين لم تصلهم أجورهم ولا منحة البطالة الفنية ولا مساعدات اجتماعية، بل قد تخلّى أصحاب النزل عن سداد الأجور. ولا نغفل طبعا دور العديد من أصحاب النزل في هذه الجائحة والذين تبرعوا بنزلهم للحجر الإجباري. وإن كنا قد تجاوزنا عديد الأحداث، إلاّ أنه يمكن القول أنّ تضارب الموقف الحكومي بين الضبابية والرضوخ لموقف الأعراف قد خلق مناخا خطيرا يهدد السلم الاجتماعي. وبالتالي فإنّ ضغط منظمة الأعراف ومواقفها، أدّى إلى احتمالين: إمّا العودة إلى العمل وتكون الروح الإنسانية هي التي تدفع الضريبة، وبالتالي شعار المربوح قبل الروح، وإما تسريح عدد هام من العمال، ليكون الشعار القيمة المضافة لرأس المال قبل العمال. وهذا من شأنه أن يعمق الأزمة الاقتصادية وأزمة البطالة وخاصّة أنّ هذا الفيروس قد كشف أنّ عديد العمال بالقطاع الخاص لا يملكون ضمانات اجتماعية، ذلك أنّ مؤجريهم لم يصرّحوا بأجورهم لدى الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي، مما حرمهم من التغطية الصحية والاجتماعية لتكون هذه الفئات أولى ضحايا البطالة والتسريح. وبالتالي يمكن القول أنّ المنظمة النقابية لأرباب العمل التونسيين ساهمت في حدّة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية ولم تلعب دورها المجتمعي والنقابي المناصر للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والصحية للعمال، وهذا المسار هو مسار القديم المتجدد همّه الوحيد تحقيق المربوح والهيمنة على سوق الشغل دون مراعاة الملفات الاجتماعية للعمال بل وقد صدّرت مواقف قد تزيد في عدد العاطلين الذين قد يكون جزء مهم منهم ضمن المشاريع الهجرية بطريقة نظامية أو غير نظامية مما يساهم في ارتفاع **الخزّان الهجري stock migratoire**. لذلك يمكن القول أنّ البورجوازية التونسية وهيكلها النقابي (الأعراف) ليست في خدمة الخيارات التنموية والوطنية نظرا لمسارها التاريخي والحالي الذي تحكمه حالة التبعية، " ذلك أنّ البورجوازيات العربية عموما تتحدد كبورجوازيات كولونيالية، نمت وتطورت في علاقة تبعيّة بنيوية مع السوق الرأسمالية. وفي تبعيتها البنيوية هذه عجزت عن حلّ المسائل الاجتماعيّة والوطنيّة. وعجزها هذا ليس طارئا أو مؤقتا، بل هو عجز بنيوي تاريخيّ، فهي لا تستطيع الانتقال إلى نمط رأسمالي مستقل، لذلك فإنّ تجدد الأنظمة العربية، وانتقالها من البرجوازيّة التقليديّة إلى البرجوازية الصغيرة، لم يجدد إلاّ مأزقها التاريخي، لأنّ هذا التجدد لم يكن إلا استبدالا طبقيّا في نمط الإنتاج الكولونيالي نفسه الذي يحكم

[20] لمزيد الاطلاع يمكن للقارئ العودة لمقال: فوزي الشيباني بعنوان إشكالية خلاص الأجور إبّان أزمة كورونا: عمال القطاع الخاص بتونس نموذجا. الموقع:
https://www.inhiyez.com/archives/3022?fbclid=IwAR2coblNQOYv1x5TyRcgc07khrsc8DR5ynVqow3cFTNvpdY_Ausq3JDBYvA

حركة البرجوازيات العربية"[21] فهي في تاريخنا المعاصر أشد ارتباطا بالمؤسسات المالية العالمية التي تنتج فقط الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تدفع بالفئات الهشّة للانخراط في مشروع الهجرة.

حينما تساهم الطبقة السياسية في تعزيز عوامل الطرد

انتهى العقد الثالث من تاريخ الهجرة غير النظامية عبر المتوسط في تونس بتحول غير جذري ومحافظ على التوازن في المشهد السياسي عن طريق المسار الانتخابي الذي أدى في مجمله إلى صعود نفس التيارات ذات التوجهات السياسية السابقة وهي التيارات اليمينية الليبرالية بشقيها الديني والحداثي وانتهت بانتخاب رئيس جمهورية مستقل عن الأحزاب السياسية. ويرجح العديد من المحللين أنّه متبنّ للأفكار الشعبوية، ولكنّه تلقى دعما غير مسبوق من قبل العديد من الأحزاب السياسية والتفافا جماهيريا كبيرا في الدور الثاني. كما حملت الأحزاب التي دخلت قبة البرلمان شعارات عنوانها العدالة الاجتماعية ومحاربة الفساد ومصلحة البلاد قبل الساسة أيام الحملات الانتخابية. ولكن هذه الشعارات خيّبت آمال التونسيين وتنكّرت لها الطبقة السياسية منذ الوهلة الأولى لدخولها البرلمان، حيث سقطت حكومة الحبيب الجملي يوم 10 جانفي 2020بقبة البرلمان بباردو، لتزداد حدّة الصراعات والانقسامات السياسية دون الاتفاق على برنامج اقتصادي واضح إلى أن نالت حكومة إلياس الفخفاخ الثقة بعد مسار عسير من المشاورات خلال 27 فيفري 2020 بـ 129 صوتا فقط مقابل 77 صوت رافض وامتناع نائب عن التصويب، وهذه الثقة لن تكون مريحة للحكومة في تمرير قوانينها بل ستزيد من عمق الصراع، لأنّ مانحي الثقة هم أيضا لا يخلون من الصراعات فيما بينهم والجامع بينهم هو البقاء تحت قبة البرلمان وآخرون باحثون عن الحصانة علاوة على وجود كتلة معارضة بحوالي 77 نائبا. ومن هنا رسمت هذه الأجواء مناخ الخيبة والإحباط لفئات عديدة وخاصّة الفئات الهشة والمسحوقة، ذلك أنّ الحكومة قد أثبتت أنّ جوهر الصراع كان الحكم والتمسك بمقاليد السلطة وليس مناصرة قضايا المهمشين، وتطور هذا الصراع خلال فترة الوباء، حيث تعيش البلاد هذه الأيام (ماي 2020) تحت أجواء سياسية ساخنة بالبرلمان وخارجه انتشرت حتى في فضاءات التواصل الاجتماعي من بينها عريضة تطالب باستقالة رئيس البرلمان وتخليه عن مهامه ومحاسبته على أملاكه، وجدلية سياسية أخرى بين طرف سياسي ونقابي متمثلة في صراع بين ائتلاف الكرامة واتحاد الشغل، بل ذهب العديد من الفاعلين السياسيين إلى المطالبة بحلّ البرلمان وتغيير المشهد السياسي وتخلي حكومة الفخفاخ عن مهامها، علاوة على التيارات الشعبوية الجديدة الصاعدة والتي تمكنت من الوصول إلى أعلى درجات الحكم والتي لم تقدم برنامجا اقتصاديا واجتماعيا خلال الحملة الانتخابية وخلال وصولها لرئاسة الجمهورية، مما زاد من تعكر المناخ

[21] مهدي عامل، "مناقشات وأحاديث في قضايا حركة التحرر الوطني وتميّز المفاهيم الماركسيّة عربيّا"، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1990، ص 14

السياسي وصار صراعا في بعض الأحيان بين تيارات سياسية ورئيس الجمهورية. لذلك فإن المحتوى والرسائل والسياق السياسي **contexte politique** زمن الوباء ومنذ انتهاء الانتخابات عام 2019 لم ترسل تلك الرسائل الإيجابية ذات البعد الاقتصادي والاجتماعي، بل صدّرت مناخ الخيبة والإحباط وعززت مشاعر اليأس لفئات اجتماعية عديدة كانت تنتظر أفقا اجتماعيا بعد مسار الانتخابات. وبالتالي فإنّ المشهد السياسي بين الفاعلين تحت قبة البرلمان وبالقصبة وبقصر الرئاسة بقرطاج هو مشهد سياسي خيّب آمال التونسيين لتتبخر أحلامهم مرّة أخرى بين الساسة والحكومات المتعاقبة وخاصّة مع رسائل رئيس الحكومة في الفترة الأخيرة والانتقال من الحجر الصحي الشامل والدخول في الحجر الموجه والتي نادى فيها بالمرور من فترة التضامن إلى مرحلة التضحيات. ومن هنا يمكن القول أنّ الطبقة السياسية ساهمت في تعزيز مشاعر اليأس الخيبة والإحباط ليكون هذا المناخ طاردا بالشباب يدفعهم للانخراط في المشاريع الهجرية السريّة.

المنطق الهجري للحارقين زمن الوباء

" قام رجل تشيكي بطلب تأشيرة هجرة، سأله الموظف: أين تريد الذهاب؟ فأجاب الرجل: ليس مهما. فعرض الموظف على الرجل مجسّما للكرة الأرضية وقال له: اختر البلد لو سمحت، نظر الرجل إلى الكرة الأرضية أدارها ببطء... ثمّ قال: هل لديك كرة أخرى؟" ***(الروائي الفرنسي من أصول تشيكية: ميلان كونديرا)***

بهذه العبارات يمكن وصف عالمنا اليوم، فأغلب الدول وخاصّة المتقدمة، أصابها شبح الفيروس وصارت أماكن لمقابر جماعية يومية، إذا لا يوجد مكان في هذه الكرة الأرضية تقريبا يحلو السفر إليه، فالكلّ أغلق حدوده والكلّ صار خائفا من الجائحة وفقدان الأرواح البشرية من ناحية واشتداد الأزمة الاقتصادية من ناحية أخرى. ولكن على الرغم من المعطى الوبائي والاقتصادي فإنّ تدفق المهاجرين بطريقة سريّة مازال متواصلا. فما الذي يفسر هجرة التونسيين بطريقة غير نظامية وخاصّة إلى إيطاليا التي عاشت ولا تزال تعيش (ماي 2020) على وقع الوباء الذي ذهب ضحيته آلاف البشر، كما خسرت إيطاليا وكلّ الدول المجاورة لها تقريبا (فرنسا، ألمانيا، بلجيكيا، إسبانيا...) خسائر بشرية ومادية كبيرة؟ فإذا كان الجذب هو العمل وتحسين المعيشة بصفة أولية، فإنّ العمل شبه غائب بأوروبا وكلّ الوسائل الإعلامية وأغلب المحللين تقريبا اتفقوا على أنّ أوروبا ستعيش على وقع نكسات اقتصادية بعد الكورونا، وبالتالي أين يكمن الجذب وخاصّة أنّ تونس تعتبر من بين البلدان التي نجحت صحيّا إلى حدّ ما في مجابهة الوباء ولم تطلها أضرار بشرية كبيرة مقارنة بدول أوروبية أخرى؟

" كورونا ولا العيشة معاكم إنتوما (معكم أنتم)"، هكذا عبّر وصرخ التونسيون الحارقون في إحدى رحلات الهجرة السرية عبر المتوسط خلال هذه الأيام (ماي2020)، والتي نشرتها صفحات

عديدة بمواقع الفايسبوك. وهذه الكلمات تحمل دلالة معناها أنّ العيش مع الخطر الوبائي أفضل من العيش في تونس المتخلّفة اقتصاديا والمعروفة بالزبونية في ملفات التشغيل، وإن دققنا المعنى في عبارة (معكم أنتم) من زاوية التحليلي السوسيو-سياسي نستنتج أنهم يقصدون الساسة والحكومات التي خيّبت آمالهم وهو شعار احتجاجي يعبّر عن عدم الرضا عن الطبقة السياسية الحاكمة. لذلك فإنّ المنطق الهجري للحارقين زمن الوباء يقوم على المزيد من الشعور بالخيبة والإحباط، فمن خلال ما ذكرناه آنفا من قرارات اجتماعية غير عادلة ومن الخيبة التي تلقاها التونسيون من أرباب العمل، أدرك الفاعلون في مجال الحرقة أنّ خطر الوباء لن يكون أشد فتكا من الخيارات التنموية، حيث ضاعت أحلامهم بموطن النشأة، ليفيد أحد الشبان التونسيين العالقين بمركز مليلة الإسباني في هذا الصدد وذلك في ندوة افتراضية أثثها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية بتونس يوم الخميس 07 ماي 2020 بعنوان: " **قضايا الهجرة في سياق مكافحة وباء كوفيد 19**" بالآتي: "**عارفين رواحنا مناش جايين للجنّة، لكن نموت و أنا نحاول خير ملي نموت و أنا فاقد الأمل**"(نعرف جيّدا أننا لم نذهب إلى الجنّة، ولكن أن أموت وأنا أحلم أفضل من أن أموت وأنا فاقد للأمل) مضيفا أيضا أنّه قد تمّ ترحيله قسريّا من إيطاليا وتحديدا جزيرة لمبادوزا سنة 2015، ومن هنا نستنتج أنّ المقبلين على هذه المغامرة قد فقدوا كلّ الأمل من مسار سياسي مازال مرتبكا وهشّا. كما تحدث الشاب أيضا عن التفاوت والتمييز الطبقي الذي جعلهم في هامش الهامش قائلا: "**ولد الزوالي يطلع زوالي**" (ابن الفقير يظلّ فقيرا) وهي دلالة على استمرارية ظاهرة الزبونية والمحسوبية والولاء على الرغم من أنّ حركات احتجاجية عديدة انفجرت جرّاءها وبالتالي رسم هؤلاء الشباب عالمهم وتفسيرهم الخاص المتمثل في أنّ موطن النشأة يفتقر للحلم، وصار مسرحا للبطالة والأزمات الاقتصادية وهشاشة طبقات اجتماعية عديدة بصفات متفاوتة، وأنّ أوروبا ستعود لتنتعش بعد كورونا وستظلّ تونس دون تغيير تنموي حقيقي، محللين الوضع أيضا بأنّ أوروبا ستحتاج اليد العاملة بعد الجائحة. وبالتالي فإنّ الوضع الصحيّ المتأزم بإيطاليا لن يكون أشد خطورة ولا عائقا أمام مشروعهم الهجري، فخوضهم غمار المتوسط عبر قوارب هشّة حالمين بالبلوغ إلى ضفته الشمالية ليس أشد فتكا من وباء سيمر عاجلا أم آجلا على الرغم من أنّ صور ضحاياه لن تمحى من مواقع التواصل الاجتماعي، كما يعتبرون أنّ إيطاليا هي مجرّد نقطة عبور نحو مناطق أوروبية أخرى وخاصّة تلك التي تشكلّت فيها جاليات تونسية بصفة كبيرة مثل (فرنسا). كما يعتبرون أنّ هذه الجائحة ستكون عاملا ينقذهم من الترحيل القسري من إيطاليا لأنّ هذه الأخيرة منشغلة في ضحايا الوباء ولن تنشغل بقضايا الترحيل والسياسات الهجرية.

لذلك يمكن القول أنّ حركة الهجرة السريّة لم تنقطع خلال كورونا، فشهرا جانفي وفيفري من عام 2020 سجّلا ارتفاعا مقارنة بنفس الشهرين من عام 2019 ويعود هذا للأسباب الاقتصادية والسياق السياسي الذي صدرته الطبقة السياسية بعد المسار الانتخابي، ولكن غلق المطارات

والاتجاه نحو المغرب، ومنع التنقل بين الولايات واتخاذ التدابير الصحيّة قد قلّص نسبيا من عدد الحارقين خلال شهري مارس وأفريل مقارنة بجانفي وفيفري من عام 2020 وإذا ما قورنت أيضا بنفس الأشهر من السنة الفارطة فإنّ الأرقام تقلصت بين مارس وأفريل ولكنّها عادت لتسجّل ارتفاعا ملحوظا خلال شهر ماي أين بدأ الحجر الموجه[22] وهو ما يفسّر أنّ العوامل الاقتصادية لا تزال في طليعة العوامل الطاردة، ليزيد هذا الوباء من عمقها وبالتالي ستكون دافعا لتسريع الموجات وتكثيفها عدديا. فالحارقون يتقاسمون نفس المأساة الاجتماعية راغبين في نفس الحلم، فرسموا عالمهم الخاص لبرمجة الرحلات وهو عالم الأحياء وشبكات الصداقة والجوار والمقاهي (المقاهي أغلقت بصفة استثنائية خلال فترات الحجر الصحي)، كما رسموا في مخيلتهم أنّ أوروبا هي الجنة الموعودة على هذه الأرض لتستغل شبكات التهجير هذا الحدث الوبائي وتستغل أحلامهم وفقرهم.

شبكات التهجير: حرفة في قراءة الأوضاع

اعتمدنا منذ البداية على التحليل وفقا لقراءات تاريخية كانت في تحولات المشهد الهجري أو في مجال منظمة أرباب العمل التونسيين، علاوة على بعض الأرقام الاقتصادية وإحصائيات عدد المهاجرين بطريقة غير نظامية، ذلك أنّ القراءة التاريخية هي أداة تحليل لا تتناقض بتاتا مع الفهم السوسيولوجي، فكما ذكرنا سابقا أنّ شبكات التهجير تطورت عبر ثلاثة عقود، إلى أن أصبحت شبكات عابرة للقارات، وهذه الشبكات خاضعة لتنظيم محكم، فإذا ما حللناها وفقا للمدرسة الإستراتيجية الفرنسية مع **ميشال كروزيه وفريدباغ**[23] نستنتج أنّ شبكات التهجير والتهريب تخضع لتنظيم عقلاني ومحكم في حسن التدبير والتسيير وتقسيم المهام، فهذا التنظيم الشبكي ليس تنظيما عشوائيّا، بل هو بناء اجتماعيّ متكامل الأبعاد ينبني على حسن توزيع الأدوار، فكلّ فاعل يتعاون مع الآخرين إلاّ أنّه يبقى على هامش من الحريّة والاستقلالية قياسا بالمحيطين به، وهي حريّة ضروريّة لأنّها جزء من حركيّة الأفراد صلب التنظيم، فالتنظيم بالنسبة لكروزيه ينبني على التعاون والاندماج الداخلي بين الأفراد وأنّ كلّ تغير حاصل هو من داخل التنظيم وليس من خارجه.

مثل منعرج الانتخابات الرئاسية الأولى والثانية والتشريعية من سنة 2019 فرصة لخروج عديد القوارب، وذلك حينما كثفت السلطات الأمنية والعسكرية جهودها لتأمين سير العملية الانتخابية، كما تم استغلال أزمة البحّارة وتهميش الثروة البحرية مما أجبر البعض من صغار البحّارة على بيع قواربهم الصغيرة للمهاجرين، كلّها أحداث وعوامل تعتمدها وترتكز عليها شبكات التهجير ومن خلالها ترسم فلسفتها الخاصّة. لذلك استفادت هذه الشبكات مرّة أخرى من "**أمننة الوباء**" وذلك حينما كثفت السلطات الأمنية والعسكرية جهودها لمجابهة الجائحة وفرض الحجر الصحيّ

[22] أنظر الملحق رقم واحد.

[23] Michel Crozier, Friedberg, « L'acteur et le système, Les contraintes de l'action collective », Editions du seuil, Paris 1977.

والشامل على المواطنين في سياق ركزّت فيه أغلب الوسائل الإعلامية والعالمية على حدث الوباء، لترسم هذه المعطيات مناخا ملائما للشبكات مستقطبة من خلالها الحالمين بالهجرة نحو أوروبا. كما لا نغفل القول بأنّ الطقس خلال شتاء 2020 كان ملائما لخروج عديد القوارب. ومن هنا يمكن القول أنّ المشروع الهجري يتغذّى من خلال الأزمات الاقتصادية من ناحية واستغلال شبكات التهجير للفراغات الأمنية وعدم انشغال الوسائل الإعلامية بملف الهجرة من ناحية أخرى، وهو ما يؤكد أن هذه الشبكات تسير نحو التطور والتحكُّم وليس إلى الاندثار والتبخّر. فهذه الشبكات تحافظ على قوتها من خلال امتدادها العلائقي بشكل أوّل والقائم على روابط دموية خاصّة بمناطق أقصى الجنوب "فعلاقات النسب والقرابة القائمة بين القبائل الحدودية التونسية الليبية من أبرز العوامل الأساسية في استمرار حركة الهجرة وعمليات التهريب والتجارة الموازية".[24] علاوة على امتدادها العلائقي مع بعض الأمنيين في جلّ المناطق تقريبا ونستشف هذا بعد خروج العديد من التونسيين من جزيرة جربة بعد إعلانها منطقة موبوءة بطريقة سريّة عن طريق شبكات تهريب، وهو ما يؤكد قوّة وصلابة هذه الشبكات، ذلك أنّ الخروج من جربة كان عبر قنطرة جرجيس فقط بعد إغلاق المعبر البحري: قابس، جربة.

الحلقات المجتمعية وقرار الهجرة السريّة

"**الدنيا مسرح كبير، وكلّ الرجال والنساء ما هم إلاّ ممثلون على هذا المسرح**" هكذا وصف **شكسبير** مسرح الحياة ليزيد "**قوفمان**[25]" عمقا في وصفها السوسيولوجي معتبرا أنّ الحياة هي مسرح ومسرحة وإخراج يوميّ، فالمسرح الذي يعنيه قوفمان هو المجال الذي تقرع فيه الأحداث، أما المسرحة فهي المضامين التي يعرضها الأفراد في هذا المجال الاجتماعي الجغرافي وهذان الأخيران يؤسسان للتفاعل والتفاعلات. وبالتالي فإنّ المهاجرين كوّنوا الركح المسرحيّ الخاص بهم، فمجالهم الاجتماعي هو عالم الحي والمقاهي تقريبا علاوة على شبكات وصفحات التواصل الاجتماعي التي صنعها المهاجرون أو الراغبون في الهجرة والتي تنشر الصور عن أوروبا أو تنشر معلومات حول فرص الهجرة بطريقة نظامية أو غير نظامية ويتمحور مضمون عالمهم حول قصص المهمشين المغيبين المنسيين الحالمين بحياة أفضل بفضاء جغرافي غير موطن النشأة، لذلك فإنّ التفاعلات فيما بينهم تقوم على اقتسام المأساة والحسّ الجماعي بمشاعر الخيبة والحلم بالهجرة ليكون المشروع الهجري أشد الارتباط بسجّل ثقافي وجودي ومبنيّ على تصورات مسبقة عن الحياة بأوروبا ذلك أنّ الشباب التونسي يفتقر للحلم. لذلك تجدر الإشارة إلى أن السببية الاقتصادية والاجتماعية من أهم عوامل

[24]- عائشة التايب كرشيد، "حركة الهجرة السريّة والتجارة الموازية عبر الحدود التونسيّة الليبية وظاهرة التهريب بأقصى الجنوب التونسي"، شهادة الدكتوراه، تحت إشراف: د. عبد الوهاب بوحديبة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيّة بتونس، قسم علم الاجتماع 1997/1996، ص 246.

[25]Goffman (Erving), La mise en scène de la vie quotidienne : la présentation de soi, Edition de Minuit, Paris 1973.

الطرد، ولكن هذه السببية غير قادرة لوحدها على تحليل الظاهرة الهجرية، "فالهياكل المجتمعيّة وخاصّة الأسرة، الحيّ، والمجتمع بشكل عام، تشكّل دوائر صنع القرارdécisionnels بل أكثر من ذلك، فهي قادرة على هيكلة وتشكيل وحشد الموارد الماديّة والرمزية لتنفيذ مشروع الهجرة".[26] لذلك فإنّ "الفرد الذي يواجه قرار الهجرة هو مرتبط ببنية اجتماعيّة تشكّلها الأسرة المقرّبة والممتدة، وأشخاص من نفس المنطقة أو مجموعة ثقافيّة أو على نطاق أوسع من قبل الأصدقاء والمعارف"[27] كذلك شبكات التهريب، ووجود أحد أفراد العائلة بالمهجر، كلّها عوامل غير مرئية للظاهرة الهجرية، فدون حضور رأسمال اجتماعي وعلائقي لا يمكن للمشهد الهجري أن يتطور. ومن هنا يمكن القول أن كوفيد 19 لم يكن عائقا أمام الحلقات المجتمعية التي تساهم في صنع القرار الهجري، بل غياب العدالة الاجتماعية زمن الوباء والرسائل السياسية السلبية كلّها عوامل حفزّت المهمشين للانخراط في المشروع الهجري. لذلك فإنّ مسرح الحياة زاد من الممثلين الذين يلعبون دور الهامشيين زمن الجائحة ولكنّهم ممثلون غير مزيفين بل واقعيون، وبالتالي فإنّ الحلقات المجتمعية المتكونة من العائلة ومتانة شبكات الصداقة والجيران وأبناء الحيّ الواحد لعبت أدوارا حاسمة في صنع القرار زمن الوباء وكانت طاردة ومولت المشروع الهجري بالمال والمعلومات ويعود هذا الدور لحدّة الأزمة الاقتصادية والسياسية واستشراف صور تراجيدية للمستقبل، كما ستزداد هذه الحلقات توسعا في عملية صنع القرار والتحفيز بعد مرور الجائحة. وبالتالي فإنّ مسرح الحياة زمن الوباء مليء بسرديات اللاعدالة الاجتماعية التي أصابت الأحياء الكبرى والجهات الهامشية مما خلق مناخا ملائما لبعض سكانها وحلقاتها المجتمعية لصنع القرار وحشده وتمويله.

حركات الاحتجاج تغذّي موجات الهجرات زمن الوباء

أكدنا في أعمال سابقة فرضية أنّ الاحتجاجات الاجتماعية التي تنتهي باليأس والإحباط إما بتجريم الحراك أو بصعود آليات التشغيل الهشّ أو دون حلحلة جذرية، كانت عاملا حاسما لتعزز مشاعر الخيبة لدى الشباب والفئات الهشّة تدفعهم للانخراط في المشاريع الهجرية غير النظامية وتجدد موجاتها. ومرّة أخرى تثبت هذه الفرضية صحتها نسبيا، ذلك أنّ كوفيد 19 وقرار الالتزام بالبقاء في البيوت في وقت سجّلت فيه تونس حوالي 994 حالة إصابة و41 حالة وفاة أواخر شهر أفريل لم تمنع بروز حركات احتجاج. "حيث تعلّقت أغلب مطالب المحتجين خلال شهر أفريل بالحق في الماء والغذاء بمناطق عديدة وخاصّة بجهة القيروان وأريافها، ولكن على الرغم من الرسائل الحكومية المطمئنة لوجود مادتي السميد والفرينة وتوزيعها بشكل عادل خلال فترات الحجر الصحيّ، إلاّ أنّ الواقع أكدّ على نقص هاتين المادتين وأغلب المواد الأساسية الأخرى، كما عاشت عديد المناطق على واقع احتجاجات تطالب بالتقسيم العادل للمنح والمساعدات الاجتماعية،

[26] Mabrouk (Mehdi), Voiles et Sel… op.cit., P 27

[27] Piguet (Etienne),"Les théories des migrations, synthèse de la prise de décision individuelle", « Revue européenne des migrations internationales, Vol 29_ N : 3, 2013, PP 141_161 » , P 150

خاصّة أولئك المنخرطين في أعمال غير رسمية وآخرون حرفيون وعمال النزل والمهمشون، ليتحوّل هذا الاحتقان إلى محاولة انتحار ثلاثة شبّان بمنطقة مكثر من ولاية سليانة بمقر المعتمدية. كما لم تتوقف الاحتجاجات خلال شهر أفريل 2020 عند المطالبة بتوفير المواد الغذائية الأساسية ومياه الشرب وتقسيم المساعدات الاجتماعية فقط، بل شملت أيضا قطاع الصحّة في مناطق مختلفة ومطالبتهم بتوفير المستلزمات الوقائية الضرورية من فيروس كورونا، وحركات أخرى ذات خلفية صحيّة تنادي بتوفير أطباء اختصاص خاصّة في الإنعاش والمطالبة بإجراء التحاليل للتقصّي حول الفيروس واحتجاجات أخرى بسيدي بوزيد تطالب بتسهيل دخول العالقين من أبناء الجهة على الحدود التونسية الليبية، كما احتج البحّارة بمنطقة طبلبة وطالبوا بتمكينهم من تعويض من صندوق الراحة البيولوجية، إلخ.... على الرغم من تنوع حركات الاحتجاج في شكلها ومطالبها إلاّ أنّ الوقفات الاحتجاجية في شهر أفريل كانت أبرز التعبيرات وظلّ تدهور الوضع المعيشي الاقتصادي والاجتماعي من أبرز أسباب صعود حركات الاحتجاج، كما تصدّرت ولاية سيدي بوزيد طليعة المناطق الأكثر احتجاجا خلال شهر أفريل بـ 75 تحركا احتجاجيا وتليها القيروان بـ 41 تحركا احتجاجيا ثمّ سوسة بـ 24 تحركا ثم مدنين بـ 20 تحركا والقصرين بـ 17تحركا وتطاوين بـ 14 تحركا وقفصة بـ 13 تحركا احتجاجيا."[28] ولكن تغيّر المعطى الاحتجاجي مع شهر ماي وخاصّة أواخر شهر رمضان وبعد عيد الفطر مباشرة (الأسبوع الأخير من شهر ماي) بمناطق الحوض المنجمي أين تمّ غلق مواقع إنتاج الفسفاط، وغلق الطرقات التي تمر عبرها الشاحنات الناقلة للفسفاط، كما عاشت البلاد في شهر ماي على وقع تحركات احتجاجية تنادي في أغلبها بالعدالة الاجتماعية، ولكن مرّة أخرى وفي سياق الوباء اصطدمت حركات الاحتجاج بالإحباط والانكسار، حيث لم تلبّ الحكومة الحاجيات الاجتماعية لفئات عديدة وخاصّة أولئك المنخرطين ضمن أعمال غير رسمية، ولا تزال إشكاليات انقطاع المياه متواصلة، كما تمّ إرسال استدعاءات أمنية وقضائية للشبان الذين أغلقوا منافذ خروج الفسفاط بالحوض المنجمي ولبعض عمّال الحضائر المطالبين بتسوية وضعياتهم الاجتماعية والقانونية، ليكون الاحتجاج الاجتماعي الذي يصطدم باليأس والإحباط مرّة أخرى وفي سياق الوباء عاملا حاسما يساهم في ارتفاع المخزون الهجري ويدفع بالمهمشين للانخراط في المشاريع الهجرية غير النظامية، وبالتالي فإنّ الاحتجاج الاجتماعي والمطالبة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لم تنقطع زمن الوباء، ولكن ظلّت المطالب على هامش الهامش ليكون المتوسط أفضل طريق لأولئك الذين ناضلوا واحتجوا، ولكن أصواتهم لم تجد قبولا قبل وأثناء الوباء، وبالتالي فإنّ الفيروس ليس أشدّ خطورة من السفر عبر قارب هشّ بالنسبة لهؤلاء المغيبين. لذلك فإنّ

[28] المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، المرصد الاجتماعي التونسي " نشرية شهر أفريل حول الاحتجاجات الاجتماعية والانتحار والعنف" عدد 79، أفريل 2020. لمزيد الاطلاع يمكن القارئ العودة لهذا التقرير=

احتجاجات شهر أفريل ومطلع شهر ماي في سياق الأزمة الاقتصادية والصحيّة الوبائية ساهمت في تضاعف عدد الذين وصلوا إلى إيطاليا خلال شهر ماي.[29]

ما بعد كورونا: أي مشهد هجري؟

يردّد العديد من المفكّرين في مجالات مختلفة خلال هذه الجائحة عبارة "العالم ما بعد كورونا" محللين فرضيات محتواها أنّ العالم سيعيش على واقع تغيرات بعد كوفيد 19 ولن يكون كما كان قبل الوباء خاصّة في المجتمعات الغربية على الرغم من محدودية هذه العبارة. ولكن ماذا عن مجتمعنا؟

"استفاق التونسيون والعرب في القرن التاسع عشر على صدمة اللقاء بأوروبا الغازية والمسلحة بالآلة والعلم، حيث افترقت الساحة الثقافية التونسية والعربية شيعا، وأضحت محل تنازع محتدم بين أصناف من المثقفين، وما كان يجمع بين هؤلاء المثقفين على اختلاف رؤاهم، هو رفضهم للحاضر لأنّه حاضر يجسّد عجز العرب عن الانخراط في الحداثة، وإدراك زمن العالم وعن فك تبعيتهم للمراكز الرأسمالية العالمية الماسكة للسلطة والثروة والعلم. فالعرب لا يزالون في علاقتهم بالعالم الغربي المتقدم ينفعلون أكثر مما يفعلون، ويستهلكون أكثر مما ينتجون...."[30] وعلى الرغم من توالي الأحداث العالمية المتمثلة في الثورات الصناعية بمختلف مراحلها في سياق متناقضات التنوير والحروب والديمقراطية ظلّت تونس خارج دائرة التغيّرات الجذرية، فعلى الرغم من رهان دولة الاستقلال على التعليم والصحة إلاّ أنّ البنى ظلّت تقريبا كما هي ولم لم تفلح في عملية التغيير. وهذا "لا يعني أننا نحيا في جزيرة معزولة، ولكن يبدو أنّ حواسنا بطيئة متكلّسة، تشبه جلدة التمساح التي تمنعه من التقاط الذبذبات واللمسات والاستجابة لها بالشكل المطلوب. سيظل عالمنا العربي في استمراره التاريخي ولن يستجيب إلى فترة ما بعد كورونا إلاّ بشكل بطيء، "...**فالتحقيب هو فعل الوعي وليس أثر الأحداث".**

قبل وباء الكورونا عمّ الفساد وانتشر الحرمان وصعدت حركات الاحتجاج لتزيد الجائحة من عمق الأزمات التي من شأنها أن تغذي حركات احتجاجية واجتماعية عديدة لفئات سجنها الحجر الصحي العام والشامل معبّرة عن غضبها وحرمانها بعد كورونا. كما ستعيش جهات عديدة على واقع احتجاجات اجتماعية تنادي أغلبها بنفس المطالب المرفوعة من قبل الوباء "التشغيل، التنمية، الصحة، الحق في الماء ..." ولكن لن تستطيع هذه الحكومة وهذا المناخ والمشهد السياسي الحالي حلحلة الأوضاع لتتعزز مشاعر الخيبة واليأس والإحباط. كما ستعمل السياسات الهجرية الأوروبية على المزيد من عزل وإدارة حدودها خاصّة أنّ الوباء قد يكون تعلّة لها لفرض قوانين جديدة باسم

[29] انظر الملحق رقم1.

[30] الهادي التيمومي، "الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، الكادحون الخمّاسة في الأرياف التونسية 1861- 1943"، دار محمد علي الحامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، الجزء الأول، 1999 ، ص 13

الحماية والتأمين من الوباء والأوبئة. وبالتالي لن يتغير الوضع بعد كورونا بتونس بل سيذهب إلى المزيد من الانكماش، حيث يتوقع صندوق النقد الدولي زيادة كبيرة في عبء الديون الذي تتحمله تونس، في ظلّ سعيها لمجابهة كوفيد 19 نتيجة للهبوط الحاد في النمو وتدهور رصيد المالية العامة الأولى بسبب انخفاض الإيرادات وتأثير إجراءات التصدي للأزمة، لذلك يمكن أن يصل الدين العام والخارجي في عام 2020 وفقا لتقديرات الصندوق إلى 89% و110% من إجمالي الناتج المحلي، خاصة أنّ تونس قد تحصلت على قرض آخر يوم 10 أفريل 2020 بقيمة 745 مليون دولار أمريكي، كما يتوقع الصندوق أيضا أن يهبط النمو عام 2020 إلى -3،4% وهو أدنى مستوى وركود يسجله منذ 1956.[31] وهذه المعطيات من شأنها أن تؤدي إلى ارتفاع نسبة البطالة تقريبا بـ 2،17% وسيبلغ عدد العاطلين نحو 730 ألف عاطل وعدد العاطلين عن العمل الإضافيين نحو 106 ألف عاطل تقريبا، إضافة إلى فقدان حوالي 63.400 وظيفة وفقا لتقديرات البنك العالمي الذي يتوقع تراجع النمو الاقتصادي ب-4%.[32] " وسيظل المنوال التنموي بتونس منحصرا بين حالتين: الحالة الأولى وهي تحقيق النمو دون التنمية أو ما يعبّر عنه بتنمية التخلّف، إذ لا تتحقق التنمية بمجرد حصول تطور اقتصادي واجتماعي لأنّ ذلك ارتبط باحتكار الثروة الوطنيّة وثمار التنمية من طرف أقليّة محظوظة مقابل تفقير الريف وتكديح الطبقات الوسطى وبؤس الأحياء الشعبية في المدن الكبرى وانتشار الجهل والأميّة... والحالة الثانية هي حالة التنمية دون نمو من خلال وجود منوال تنمية تابع ومرتبط بما تفرضه المؤسسات الماليّة العالميّة التي تحبس بلدان الجنوب في فخّ التبعية والتخلّف، في حين أنّ التنمية الحقيقيّة تفترض أن يحتفظ كلّ بقدرته على التحكم في الشروط المادية لإعادة إنتاج مجتمعه[33]". لذلك لن نتغير في سياق منوال تابع ومتخلف بل ستتعمق الأزمة وتظل أبرز الهواجس الأولى لكل الحكومات المتعاقبة هي تسديد خدمات الدين الخارجي على حساب التنمية والتطور الاجتماعي والاقتصادي، ففي الميزانية العامة لسنة 2019 خصصت 23% لسداد الدين الخارجي مقابل 13% فقط موجهة للخدمات والملفات الاجتماعية[34] وبالتالي ستلجأ العديد من الفئات إلى الخلاص الفردي، وسينخرط العديد من الشباب في مشاريع الهجرة السريّة زمن كورونا وبعدها وستزداد موجات تدفق المهاجرين والفواجع بالبحر المتوسط خاصّة بعد أن كثفت رئاسة الحكومة من الرسائل السلبية الكتابية من خلال المنشور عدد 16 بتاريخ 14 ماي 2020 وموضوعه إعداد مشروع ميزانية الدولة لسنة 2021، الذي ينص على جملة من الأهداف، ولبلوغها قررت الحكومة

[31] https://www.imf.org/ar/Countries/TUN/tunisia-qandas. Le 21/05/2020.A 21 :52h.

[32] Azzam Mahjoub, « Pandémie COVID 19 en Tunisie : LES INEGALITES, LES VULNERABILITES A LA PAUVRETE AU CHOMAGE » Forum Tunisien Pour Les Droits Economiques Et Sociaux, Mai 2020. P 32.

[33] المولدي قسّومي، " استئناف البناء الوطني من منظور العقد الاجتماعي أيّ دور للاتحاد العام التونسي للشغل؟"، " الإتحاد العام التونسي للشغل في مسار البناء الوطني (2014- 1946)"، جامعة منوبة، منشورات المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر بالاشتراك مع الاتحاد العام التونسي للشغل، 2018، تنسيق وجمع النصوص وتقديمها: مروان العجيلي، محمد فوزي السعداوي، مولدي قسّومي، عبد المجيد بالهادي، ص، 105، 145، ص 131.

[34] Olfa Lamloum, « Tunisie. Une gestion sécuritaire du covid_19 au détriment du droit à la santé » Le 29 avril 2020. Site : « orienxx.info »

العمل على تطبيق جملة من التدابير والإجراءات الاستثنائية ومن أهمهما عدم إقرار انتدابات جديدة بالنسبة لسنة 2021 باستثناء بعض الاختصاصات الملحة ذات الأولوية القصوى وبالتالي ارتفاع الخزّان الهجري وتوسع خارطة المهاجرين.

خـــــاتمة

إذا كانت كلمة الحرقة في تونس قد ارتبطت بالمهاجرين غير النظاميين، فإنّ "الأصل الاشتقاقي جاء من الدارجة المغربية من فعل (حرك) أي من فعل حرق في اللّغة العربية، فالحريك له علاقة بالحرق، وبالتالي بالنار، وتأويلات الحرق والنّار تتصل بسرعة بالهلاك والموت، كذلك نفس الشيء بالنسبة للغرق في البحر، وهنا يتم ربط الفعل حرك من خلال مصدره الحرق بالغرق، كما أنّ الحرّاكة عادة ما يقومون بحرق كلّ الأوراق التي تثبت هويتهم، أو يتركونها وراءهم حيث لا أمل في الرجوع إلى الوراء، هذا معطى آخر يزكّي الأصل الاشتقاقي لمفهوم الحريك، فيقال "حرك الفيزا" أي لم يحترم مدتها فتجاوزها."[35] ولكن إذا كان الفعل (الحرقة) يدل على أنّ فردا أو مجموعة ما هاجرت بطريقة غير نظامية ونسبة الموت فيها عالية، فإنّ ما يمكننا استنتاجه اليوم أنّ الحرقة هي حُرقة الإنسان في وطنه قبل الحرقة عبر قوارب هشّة، حيث احترقت أحلامهم وتبخّرت ولم يعد هناك فرق بين الحياة والموت في موطن النشأة وبالتالي فإنّ المهاجرين غير النظاميين يعيشون حرقتين: الأولى بموطن النشأة أين ضاعت واحترقت الأحلام وتلاشت والثانية أثناء المغامرة والرحلة الهجرية، أما الحُرقة الثالثة بمواطن الاستقبال وذلك بعد أن يعيش المهاجرون انتهاكات إنسانية جرّاء السياسات الهجرية. ومن هنا يمكن تفسير المنطق الهجري لهؤلاء الفاعلين الذين رسموا تصورهم وقراءتهم الخاصّة من خلال أنّهم أموات بالحياة في موطنهم ولا فرق بينهم وبين الموتى إلاّ بالتنفس، وبالتالي ركوبهم قوارب الموت أو تعرّضهم لعدوى الفيروس هو أمر لن يكون أشدّ خطرا من حياتهم التي تغذّت بمشاعر اليأس والخيبة والإحباط التي كانت السياسات التنموية والطبقة السياسية من أبرز العوامل التي رسمت وصدّرت هذا المناخ. وبالتالي فإنّ "الهجرة غير النظامية هي حركة يستخدمها المهمشون ويعتبرونها من بين المصاعد التي يمكن أن ترتقي بهم طبقيا، كما أنّ الحرقة تمرّ عبر ثغرات في نظام التمييز العنصري والتمييز السلبي المسلط على تخوم المركز، فهي خلاص فردي وجماعيّ في آن لعدد كبير من شباب الحومة الشعبية"[36] ومن الفئات الهشّة والمسحوقة ومن أناس ضاق بهم الحال وركبهم اليأس بموطن النشأة.

فردوس رحّالي، "دور الدولة والمجتمع المدني في إدماج الشباب المغاربي"، المؤتمر السابع والأربعون لمنتدى الفكر المعاصر حول: الشباب المغاربي وتداعيات الهجرة السرية، منشورات مؤسسة التميمي،ماي 2017، 72-96، ص84[35]

[36] سفيان جاب الله، " الراب، السلفية العلمية والألتراس: حين تحكي " الحومة الشعبية"، المراسل، نشر يوم 4 يوليو (جويلية) 2019. الموقع: al-morasel.com. Le 09/06/2020.

لذلك نؤكد مرّة أخرى على ضرورة مراجعة المسار التنموي الذي ظلّ متخلّفا، ومراجعة السياسات الهجرية وإيجاد حلول بديلة تقطع مع الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تلبي حاجيات الفئات الهشّة والمسحوقة وإلاّ ستتصاعد حركات الاحتجاج الاجتماعي وستنخرط العديد من الفئات والطبقات بصفات متفاوتة في مشاريع الهجرة غير النظامية وتتوسع شبكات التهجير وقد تتنوع فيه طرق العبور وتتشكل من خلالها قصص تراجيدية أخرى تكون فيها الروح الإنسانية بطلة القصّة والسردية.

الملحق رقم 1

	2020					2019		
	عدد عمليات الاجتياز المحبطة	عدد المجتازين	الواصلين الى ايطاليا	الواصلون بحرا الى شمال المتوسط عبر طرق أخرى (مالطا ...)	الواصلون برا عبر البلقان	عمليات الاجتياز المحبطة	عدد المجتازين	عدد الواصلين الى ايطاليا
جانفي	22	316	42			8	177	31
فيفري	25	571	52			4	46	21
مارس	4	137	60			20	323	85
افريل	6	99	37			11	166	116
ماي	60	1243	494			19	249	94
المجموع	**117**	**2366**	**685**	**196**	**21**	**62**	**961**	**347**

المصدر: بلاغات وزارة الداخلية التونسية (تبقى الاحصائيات تقريبية ولا تعكس كل الحقيقة)
احصائيات المفوضية السامية لشؤون اللاجئين
احصائيات فرونتكس

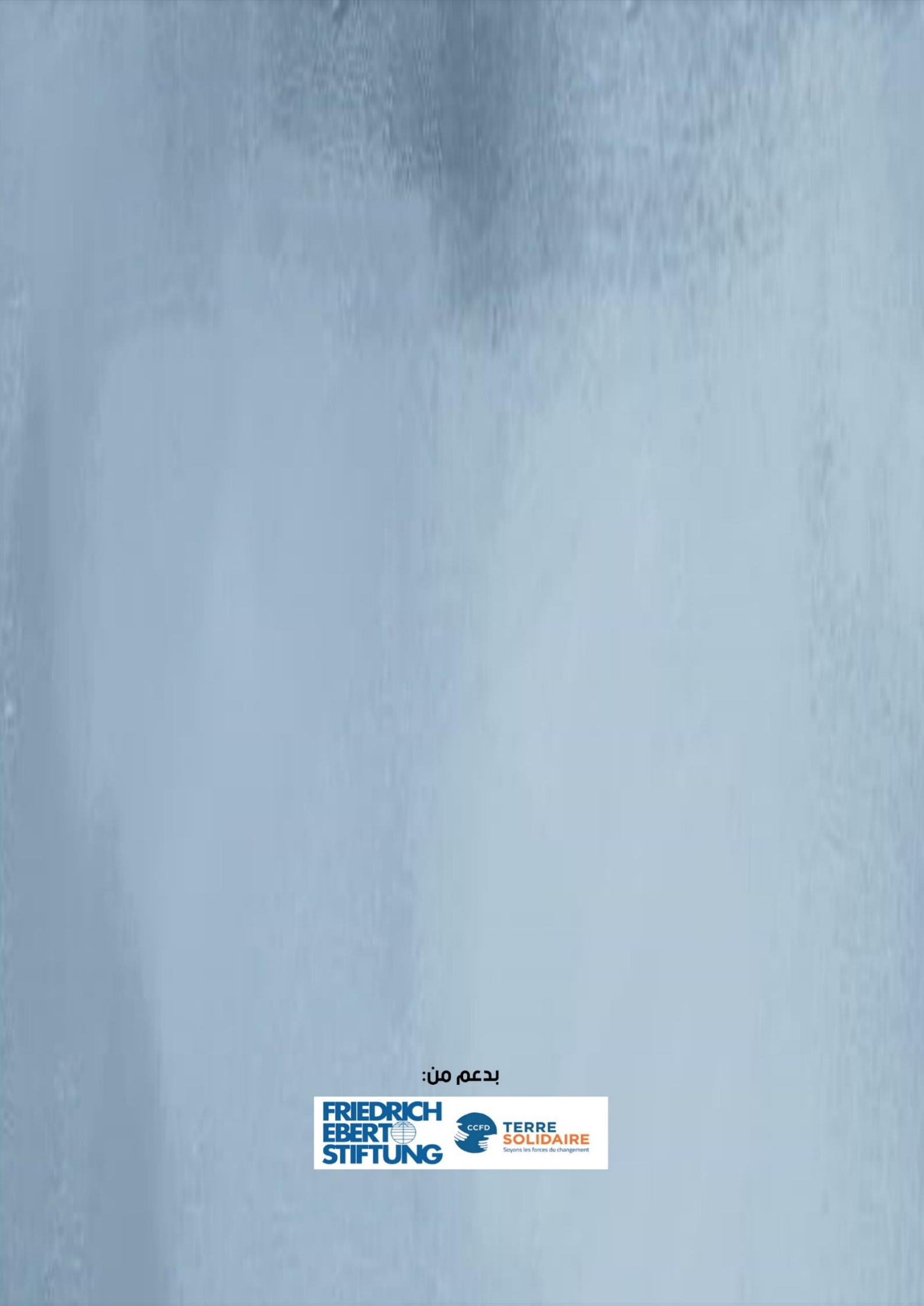

بدعم من:

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

CCFD TERRE SOLIDAIRE
Soyons les forces du changement